

المحاضرة السادسة: مصادر تاريخ الجزائر الحديث

1- كتب الرحلات:

1.1- كتاب "رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الكبير" لأحمد بن محمد بن هطال التلمساني:

يُعتبر ابن هطال مؤلف هذه الرحلة، شخصية مهمة في تاريخ الجزائر، فهو مستشار وكاتب ودبلوماسي ومحارب، عاش فترة خصبة من تاريخ الجزائر، فالقرن الثامن عشر شهد زخما كبيرا وأحداثا تاريخية مهمة كانت جديرة بالتسجيل والبعث، ونظرا لأن ابن هطال تولى تلك المناصب الرفيعة والحساسة؛ فقد اكتسب ثقة الباي محمد الكبير، الأمر الذي جعله يأخذ منه تفويضا بمرافقته في حملته العسكرية إلى الجنوب الصحراوي (عين ماضي والأغواط وجبل عمورة) لتأديب بعض القبائل الممتنعة عن دفع الضرائب والدنوش، وقد أمره الباي بتدوين أخبار واحداث هذه الحملة التي عنونها بـ (رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي)، وقد نشر الباحث الفرنسي جورجوس "Gorguos" هذا العمل في المجلة الإفريقية.

فقد تضمنت الرحلة أخبارا جغرافية وعسكرية وثقافية واجتماعية مهمة جمع فيها بين الشعر والنثر، وقد تفرد بذكر كثير من الأحداث المهمة التي لا يتسنى لنا أن نجدها في غيرها من المصادر التاريخية الأخرى، وتشير إحدى الدراسات الأدبية لهذا الكتاب؛ على أنها تجليات المكان في هذه الرحلة لا يمكن أن تكون بصورة واحدة فهي متفاوتة ومتباينة، ويظهر تباين الأمكنة من حيث درجة اهتمام السارد باتباع الأهمية الاستراتيجية من حيث الموقع والقيمة المعلوماتية والتاريخية التي تفيد للرحلة وأهدافها، فهو يعزز معلوماته التاريخية بذكر الأماكن التي حدثت فيها أحداث ووقائع الرحلة بأسمائها المحلية الأصلية المعروفة بين سكانها، غير أن ما يلاحظ عن هذا الكتاب هو أنه كثير الأسجاع الركيكة، وكثير الألفاظ عامية المبني، وإقليمية النزعة، كما أن صاحبه لم يرتب أخبار الكتب في فصول وأبواب كما جرت العادة عند كثير من المصنفين القدامى، ولعل ذلك راجع لضيق الوقت، وفقدان المهلة، لأنه قيده وكتبه أثناء رحلته، فكانت كتابته تقليدية بحتة فهو يعتمد على سرد الحوادث وذكر الواقع، ولم يطعم مادته العلمية بالتحليل والنقد.

2.1- رحلة ابن حمادوش:

ولد عبد الرزاق بن محمد بن محمد المعروف بـ "ابن حمادوش الجزائري" في مدينة الجزائر سنة 1107 هـ / 1695م بمدينة الجزائر، وتوفي بعد حوالي تسعين سنة في مكان وتاريخ مجهولين، ولكن أغلب الظن أن المنية وافته وهو بالمشرق بين سنوات 1197-1200هـ / 1783-1786م، كان أشعري العقيدة ومالكي المذهب، تقلد عدة وظائف دينية، وتنقل في بلدان إسلامية بالمشرق والمغرب.

لقد ألفه ابن حمادوش رحلته بلغة بسيطة تتخللها بعض المصطلحات العامية، كما أنه يفتقد لوحدة الموضوع فكثيرا ما يتخلل حديثه بعض الاستطرادات، كما أنها تفتقر إلى وحدة الموضوع والترابط العضوي، فهي تحتوي على خليط من الحوادث والأفكار والكلام المنقول والمذكرات، وبعض الحوادث تنضح بالخرافات، غير أنه يذكر الأحداث وفق ترتيب كرونولوجي مع الحرص على ذكر التواريخ وضبطها، وهذا ما جعل كتابه يتصف بالدقة، وشأنه شأن معاصريه تجده يعتمد على المزج بين الأسلوب التاريخي والأدبي التوضيح الحقائق التاريخية وتصويرها بدقة أكثر كما جمع بين السرد والوصف.

اعتمد المؤلف في تدوين كتابه على المشاهدة العينية باعتباره عايش جل الأحداث التي أوردتها، وكذلك على الروايات الشفوية من خلال احتكاكه بالعديد من الشيوخ وممن شاهد الحادثة التاريخية، غير أن هذا لم يمنع من اعتماده على عدد من المصادر التي استشهد بها في مختلف المواضيع التي طرحها، ككتاب المقدمات في التوحيد، العقائد السنوسية، مقامات الحريري، تاريخ مختصر الدول وغيرها من المصادر.

زار ابن حامدوش في رحلاته عددا من بلدان المشرق والمغرب التي زارها، وعمل على تدوين كثير من الأحداث المهمة ووصفها، غير أنه ركز على التاريخ المغاربي عامة والجزائري بصفة خاصة، كما نجد أنه استغرق كثير في تدوين أحداث فترة حكم الباشوات التي عايشها، لذلك أرخ لحكم الباشوات وفق الترتيب الزمني من سنة 1654م إلى سنة 1745م، ومختلف الحوادث التي عرفتها إيالة الجزائر في تلك الفترة كثورة الزواوة سنة 1745م، كما لم تهمل حديثه عن حكام تونس كمحمد باي والمغرب الأقصى كالمولى عبد الله.

أما الجانب الاقتصادي والاجتماعي فهو الآخر أخذ حيزا من الرحلة من خلال ذكره مثلا لحصاد الشعير، وعملية الانتقال على القوارب المصنوعة من حزم البردي، ونوع العملة المتداولة بتطوان في عهده وهي "الموزونة"، وضريبة المكس على السلع بميناء تطوان، كما يذكر بعض العادات والتقاليد الاجتماعية في الم واسم الدينية، ومنها عادة أهل الجزائر ليلة القدر، وقد حضر ذلك بمدينة الجزائر.

2- المذكرات:

1.2- مذكرات خير الدين بربورس:

تعتبر مذكرات خير الدين بربورس مصدرا تاريخيا مهما في تاريخ الجزائر الحديث، فهو كتاب متميز في موضوعه وأسلوبه وغايته كونه يمثل رواية حية، أملاها خير الدين بربورس على رفيقه المرادي، بناء على أمر من السلطان سليمان القانوني (1494-1566م) بغية التعريف بالمراحل التاريخية التي سار عليها الإخوة بربورس منذ خروجهم من جزيرة (ميديلي) "Midilli"، إلى أن تمكنوا من حكم الجزائر وطرد الإسبان منها، والتصدي لحملاهم على سواحل الجزائر، وإيقادهم لآلاف المهاجرين الأندلسيين الذين لاحقهم الإسبان إلى سواحل بلاد المغرب، فهو يورد في مذكراته سبب تأليفه حيث يقول: "أثناء اتصالي بالسلطان سليمان خان بن سليم خان، ورد علي فرمان سلطاني: "كيف خرجت وأخوك عروج عن جزيرة ميدلي وفتحتم الجزائر؟ وما الغزوات التي قتم بها في البر والبحر حتى الآن؟ دون كل الأحداث بدون زيادة أو نقصان في كتاب وعندما تنتهي أرسل إلي نسخة لأحتفظ بها في خزانتي".

لقد أفاتنا هذه المذكرات في ذكر أهم المتغيرات والأحداث التي جرفت خير الدين بربورس وأخوته لاقتحام عالم الجهاد البحر، فقد أرخت لنا ظروف وملابسات وصول الاخوين خير الدين وعروج إلى سواحل بلاد المغرب واتصالهما بالسلطان الحفصي في تونس الذي أقنعه بأن يسمح لهما في الرسو في ميناء "حلق الوادي" وجعله قاعدة للجهاد البحري، كما أن المذكرة زودتنا بمعلومات قيمة ونادرة عن حقائق تاريخية تخص مرحلة الاستقرار في الجزائر وما رافقها من ثورات متتالية تولى قيادتها والتحريض عليها الزعماء المحليون بتحريض من الإسبان وسلاطين بني زيان في تلمسان وبني حفص في تونس. وخلال ذلك كان خير الدين يسرد بتفصيل دقيق غزواته البحرية ضد السفن والسواحل الإسبانية أو التابعة لها والمتحالفة معها، وكذا حملات الإسبان على المراسي الجزائرية. ولم يغفل خير الدين الحديث عن تطور علاقاته بالدولة العثمانية وإعلان تبعيته للسلطان العثماني باعتباره خليفة المسلمين، وما وأكب

ذلك من تقارب في الرؤى والمواقف السياسية. الأمر الذي أفضى إلى تتويج ذلك الولاء بتعيين خير الدين قائدا عاما للأسطول العثماني حاملا لقب "قبطان داريا"، وهو أعلى رتبة عسكرية في البحرية العثمانية.

2.2 مذكرات تيدنا:

ولد تيدنا سنة 1758 بفرنسا من عائلة كاثوليكية ميسورة الحال، وقد سعت أسرته جاهدة إلى يصبح رجل دين فأرسلته إلى مدرسة كاثوليكية ليتعلم مبادئ وأسس الديانة النصرانية، ولكنه على ما يبدو لم يكن على استعداد لذلك، حيث عمل في فيلق الحامية العسكرية في كورسيكا، ثم غير وظيفته إلى كاتب لوكيل مقاطعة، غير أن حبه للأسفار قاده نحو مدينتي ليفورنا "Livourne" وقاديس "Cadix" حيث عاش في منزل أحد أقرباء أبيه، ثم مارس مهنة نقل براميل الخمر من مالاقا إلى مرسيليا، على متن سفينة إسبانية تعرضت إلى القرصنة من قبل السفن التابعة لداي الجزائر، وعلى إثر ذلك تم أسر "تيدنا" و من معه، و من حسن حظه أشتراه في الحين باي معسكر الذي كان يحتاج إلى شخص مثقف و مخلص الإدارة منزله، فبقي في قصره و في خدمته مدة ثلاثة أعوام و سبعة أشهر، تدرّج تيدنا خلالها إلى أن صار "خزندار".

كان تيدنا يرافق الباي "محمد الكبير" في كل تنقلاته وعلى هذا الأساس تعتبر مذكراته مصدرا فريدا في تاريخ إيالة الجزائر خلال تلك الفترة، وأفادنا بمعلومات قيمة سلوك هذا الباي ونظام حكمه وعلاقاته مع مختلف شرائح المجتمع الجزائري من جهة، وقد أكسبته مغامراته ومعاملاته مع أهل غرب الجزائر أشياء كثيرة قلما وجدنا غيره قد حصل عليها؛ إذ كان يتقن أكثر من لغة كالإسبانية الإيطالية والعربية وثقافتها.

في سنة 1785؛ وفي أحد مستشفيات زوريخ (Zurikh)، كتب "تيدنا" مذكراته تحت عنوان: "نظرة على إيالة الجزائر"، ذكر فيها أعمال القراصنة و وحشية "البربريين" ووضح أن سلطنة الداوي والبايات الثلاث قائمة على أقلية من العسكريين ذوي الامتيازات، و أن القوة يدعمها الداوي المستبد في الجزائر وقائمة على جبن الدول التجارية المستعدة دائما لدفع الإتاوة أو الضرائب، ومهما يكن فإن مذكرات تيدنا قدمت لنا صورة واضحة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزائر، و المعاملة الحسنة التي كان يحظى بها الأسرى المسيحيين في الجزائر، كما قدمت لنا أيضا صورة واضحة عن أحد البايات الكبار الذين عرفتهم الإيالة الجزائرية في القرن الثامن عشر.

3- الكتابات والمؤلفات الأوروبية:

تُعد المصادر التاريخية الأوروبية مادة زخمة في دراسة بعض الجوانب التاريخية المتعلقة بالأنظمة الإدارية والعسكرية في الحوض الغربي للمتوسط عموما وتاريخ الجزائر على وجه الخصوص، وقد نجدها في كثير من الأحيان تقدم وجاهت نظر أطروحات تاريخية مختلفة عن بعض المواضيع التي خاضت فيها أقلام المؤرخين المحدثين والمعاصرين مثل: مواضيع القرصنة البحرية، وأوضاع الأسرى، والعلاقات مع القوى المسيحية. ورغم ما يشوب هذه المصادر من أخطاء ناجمة عن النزعة الدينية المتعصبة، أو محدودية معرفة المؤلفين بلغة البلاد وتقاليد سكانها، فضلا عن الأحكام المسبقة التي تنأى عن الواقع - كما يتضح من تحليل مضامينها - فإنها تظل ذات قيمة علمية لا يمكن إغفالها، بحيث أن العديد من هذه الكتابات تفتقر للموضوعية والدقة، وتعاني أحيانا من غموض أو تحريف في عرض الوقائع، غير أنها تبقى مراجع مهمة للباحثين في التاريخ المغربي الحديث، ومن بين هذه المؤلفات مايلي:

1.3- مؤلفات دييغو دو هايدو (Diego de Haedo):

هو راهب إسباني الأصل تعرض للأسر والاختطاف من قبل رياس البحر الجزائريين في أبريل 1578م خلال رحلة بحرية في سفينة تابعة لقراصنة مالطا رفقة 289 شخصا، ثم أطلق صراحة سنة 1582م، وخلال هذه الأربع سنوات التي قضاها هايدو في الجزائر في حياة السجن والأسر، فقد دون أخبارا تاريخية مهمة عن الجزائر وحياة الأسرى، وتتمحور أعماله وكتابات التاريخ حول الطبوغرافيا والتاريخ العام للجزائر، ولكن مع كل ما قيل عن أهمية كتب ومؤلفات هايدو بصفتها مصادر تاريخية مهمة، غير أنها لا تمثل مصادر علمية موثوقة كونها تكتنز في طياتها نظرات سلبية ورؤى غير موضوعية تحتاج إلى تدقيق وتحليل، فهايدو كان من بين الكتاب الذين قدموا أطروحات تاريخية تركز على الحط من قيمة المجتمع العربي الإسلامي على العموم والجزائري على وجه الخصوص؛ ووصفه بأقذر الأوصاف والنعوت، ومن بين هذه كتابات ومؤلفات هايدو التي وصلتنا نجد كل من:

1.1.3- طبوغرافيا الجزائر (La Topographie d'Alger):

هو مؤلف مهم جدا في تاريخ الجزائر الحديث، نشرت فصول هذا الكتاب بالمجلة الإفريقية في العدد 14-15 التي صدرت سنة (1870-1871)، ويقدم لنا هذا الكتاب دراسة وصفية عن تاريخ مدينة الجزائر ومناخها وعمرانها وكل ما تعلق بذلك، وحكامها الذين تعاقبوا على حكمها، وقدم لنا وصفا دقيقا لتركيبها السكانية وقدم إحصائيات دقيقة عن الفئات الاجتماعية والسكانية التي استقرت بالجزائر من أتراك واعلاج وعناصر محلية وانكشارية، كما أفادنا بمختلف المعلومات عن عادات وتقاليد مختلف تلك الفئات والمجتمعات.

2.1.3- تاريخ ملوك الجزائر (Histoire Des Roi d'Alger):

يعتبر هذا الكتاب مصدرا تاريخيا مهما لكل المؤرخين المهتمين بتاريخ الجزائر خلال الفترة الحديثة، فهو يعتبر واحدا من المؤلفات التي تكشف لنا حقائق تاريخية مهمة عن أوضاع الجزائر القرن السادس عشر، كما أنه يتضمن جردا لقائمة أسماء حكام الجزائر خلال هذا القرن وفق تسلسل كرونولوجي بداية من "عروج بربروس" (1516-1518م) إلى غاية مصطفى باشا (1596-1598م).

3.1.3- الأسر في الجزائر (De La Captivité à Alger):

لقد تضمن هذا الكتاب معلومات مهمة عن حياة الأسرى في الجزائر، كون هايدو كان هو الآخر أسيرا في إحدى سجون العاصمة، وربما أن رسالته من خلال تأليف هذا الكتاب هو استمالة وتحفيز الأثرياء النصارى لجمع الأموال وإنفاقها في سبيل افتداء الأسرى، كما أننا نجده قد خصص بعض صفحات كتابه للحديث عن خفة "الغليوطات" التي كان يستعملها البحارة الجزائريون وحيوية رياسهم ويقظتهم، وبين ثقل "غاليرات" النصارى وقاداتها الذين لا يجروون على مواجهة أمواج البحر العاتية.

4.1.3- الشهداء والمرابطون (Les Martyres et Les Marabouts):

لقد كان هذا الكتاب على شكل حوار بعد لقاء جمع بين القائد "جيروم راميريز" (Capitaine Jérôme Ramirez) لصديقه في السجن الدكتور (Sosa)، حيث شاهد كتابا بين يدي هذا السجين، فكان ذلك فرصة مناسبة للحديث حول فائدة قراءة الكتب حول حياة القديسين وشهداء الإيمان، كما يحتوي هذا الكتاب على أسماء بعض الأسرى الذين قتلوا على يد العثمانيين في الجزائر، وقد وصف صورا بشعة لعذاب ومعاناة هؤلاء السجناء.